



الحقيقة الكونية للحضارات

تأتي قضية التفاعل بين الإنسان والآخر على رأس قائمة الأولويات التي حددتها قوانين العمران البشري التي استنها الخالق (عز وجل) فينا، وتعد أهم الأهداف التي لأجلها خلق الخالق (عز وجل) الإنسان على هذه الصورة، من كون الناس قد تفرقوا شعوباً وأممًا وقبائل، وفي أي شكل من أشكال العمران الإنساني أو الجماعات البشرية.

ويقول الله تعالى في كتابه العزيز في سورة "الحجرات":
(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)، وهنا يحدد الخالق (عز وجل) الهدف من تفرق الإنسان في الأرض إلى قوميات وألسن متفرقة، وهو التعارف والتفاعل البناء.

ولقد حكمت هذه الرؤية بطبيعة الحال نظرة الإسلام إلى قضية التلاقح الحضاري مع الآخر، ولكن تقلبات الأزمان، وانحراف المسلمين عن صحيح العقيدة والفهم، في مقابل ازدياد الحرب الحضارية التي يشنها الغرب المسيحي اليهودي على العالم العربي والإسلامي؛ كل ذلك أدى إلى توتر العلاقة ما بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى.

والحوار مع الآخر في الإسلام ليس ممنوعاً، بل هو واجب شرعي، ما دام يحقق مجموعة من الاشتراطات، من



• تأليف: د. محمود الزهّار • تقديم: عبد الفتاح أبو زائدة

• الناشر: الدائرة السياسية والعلاقات الخارجية بحركة المقاومة الإسلامية "حماس" - غزة - فلسطين، ط ١، ٢٠١١م

• عرض: أحمد التلاوي • عدد الصفحات: ٤٢٣ صفحة

وبين أيدينا كتابٌ يتناول هذه الفكرة من جانبَيْها، النظري والعملي، ويحمل عنوان "الحقيقة الكونية للحضارات"، من تأليف الدكتور محمود الزَّهَّار - وزير الخارجية الفلسطيني السابق في حكومة حماس - يعالج عدداً من القضايا والإشكاليات حول الحضارة والثقافة والمدنيَّة ومكوناتها في العمران البشري، وما يرتبط بها من قضايا حول كيفية تفاعل وتلاقُح الحضارات الإنسانيَّة المختلفة مع بعضها البعض، ومفهوم البناء السياسي للحضارات، وجذور الصراع الكوني الحالي وأسبابه، وخصوصاً بين المسلمين والغرب.

كما يتناول الكتاب عدداً من القضايا المرتبطة بهذه الإشكاليَّات في زمننا المعاصر، منها واقع الكتل الحضاريَّة الكبرى في عالمنا الحالي، مثل الأمة الإسلاميَّة والغرب والهند والصين، ومعالَم من مستقبل العلاقات فيما بينها، في إطار الصحوة أو النهضة الحالية التي تشهدها بعض الحضارات الإنسانيَّة، مثل الصحوة الإسلاميَّة والنهضة في كل من الصين والهند وأمريكا اللاتينيَّة، وتأثيرات ذلك على مراكز القوى العالميَّة.

يتكون الكتاب من مقدمة وأربعة عشر فصلاً تتناول العديد من هذه القضايا في إطار ترابط يجمع بين ما هو نظري وما هو عملي.

وفي مقدمته للكتاب يؤكد الأكاديمي والمفكر الإسلامي الفلسطيني الدكتور عبد الفتاح أبو زائدة أن الكتاب يركز على إرسال مجموعة من الرسائل، من أهمها، وباعتراف الكثير من الأمم والحضارات الإنسانيَّة، أنَّ الحضارة الإسلاميَّة تستمد حياتها وحيويتها من داخلها، ومن إيمان

بينها الحفاظ على الهوية الحضاريَّة للمجتمعات العربيَّة والإسلاميَّة، وأن يكون على قدرٍ من النديَّة، بالشكل الذي يحافظ على الأمة وعلى كرامتها ومصالحها، والنقل عنه بالشكل الذي يضيف إلى عناصر قوة الأمة ونهضتها، على مختلف المستويات، العلميَّة والفكرية والحضاريَّة.

وقد كان من أبرز الإشكاليات التي ظهرت في مرحلة ما بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م على مستوى الإعلام الغربي، وحتى على مستوى فهم الغربيين للإسلام، هي الإشكاليَّة الخاصة بموقف الإسلام من الآخر، وكيفية تعامل الإسلام والمسلم مع العقائد والديانات الأخرى، ومع الآخر غير المسلم، وكيف يتم التفاعل بين الجانبين، على مختلف المستويات، بما في ذلك الإطار الحضاري العام للتفاعل.

وبطبيعة الحال، لا يتحمل العرب والمسلمون مسؤولية هذه الإشكاليَّة؛ حيث إن المسؤول عنها بالدرجة الأولى هو الحشد السياسي والإعلامي، بل والعسكري، ضد العرب والمسلمين ديناً ودولاً وحضارة، في الغرب، من جانب أعداء للأمة.

ولقد دفعت هذه الحالة الكثير من المفكرين والساسة العرب والمسلمين ممن ينتمون إلى التيارات الإسلاميَّة المختلفة إلى محاولة دراسة هذه الإشكاليَّة من أكثر من زاوية، من بينها ما هو عملي يناقش واقعها من خلال الممارسة العمليَّة منذ فترة الحروب الصليبيَّة وحتى وقتنا الراهن، وخصوصاً في مرحلة ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وما هو نظري فيما يتعلق بالأطر التي تتحرك في إطارها الأمم المختلفة في علاقاتها بين بعضها البعض، وموقف الإسلام الحنيف من ذلك كله.

الحوار مع الآخر في الإسلام واجب شرعي مادام يحقق بعض الشروط أهمها: الحفاظ على الهوية الحضارية للأمة، وحفظ كرامتها ومصالحها، وتوافر قدر من الندية بين المتحاورين



الحضارات الأخرى الموجودة في هذا العالم، فيشرح معالم هذا الانهيار القيمي والأخلاقي الموجود في أكثر من صورة، من بينها نهب ثروات الشعوب وزيادة معدلات الفقر في العالم، وانتشار مرض الإيدز والمخدرات والانحرافات الأخلاقية المختلفة.

ويستقيض المؤلف في مقدمته للكتاب في شرح معالم الأزمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي يواجهها المسلمون والعرب في عالمنا المعاصر، فيذكر نسب الفقر والبطالة ومظاهر التخلف الحضاري الموجودة بشكل عام، فيقول: إن البطالة وصلت في عالمنا العربي إلى ٢٢٪ من مستوى القوى العاملة، ويقول: إن الفقر وصل إلى مستوى غير مسبوق يكاد يصل إلى ثلاثة أرباع عدد سكان العالم العربي.

ويضيف الدكتور الزّهار أن القرن الحادي والعشرين صاحبه الكثير من الآمال الطوال من جانب شعوب العالم في أن يكون العالم أكثر عدالة ورفاهية؛ إلا أن مظاهر الفقر والجوع والمرض الموجودة حالياً في العالم، تشير إلى حالة الاقشآت والظلم الموجودة في العالم في الوقت الراهن، والتي سببها الرئيسي قوى

أصحابها بها وهي لا تخص إنساناً دون آخر، ولا جماعة دون أخرى؛ وإنما هي حضارة إسلامية شاملة، تنطلق من رؤية استراتيجية للعالم، كما أنها هي حضارة القرآن الكريم الذي قال فيه الله (عزَّ وجلَّ): إِنَّهُ قَدْ كَرَّمَ بَنِي آدَمَ عَلَى سَائِرِ المخلوقات.

الرسالة الثانية التي يحاول الكتاب إيصالها هي أن الإسلام كدين وحضارة إنما هو بالأساس دعوة لإنصاف المظلوم وإعطاء كل ذي حق حقه من غير تمييز بين هذا أو ذاك، باعتبار أن من يعيش بين ظهرائي الإسلام يصبح له ما للمسلمين وعليه ما عليهم.

أما الرسالة الثالثة في هذا الإطار، فهي أن دعوة الإسلام انطلقت من أرض العرب، ورسول الله (ﷺ) كان عربياً، ومن ثم فإنَّ العرب يتحملون المسؤولية الأولى عن نشر الإسلام والتعريف به، باعتبار أنهم أصحاب لسانه، وهم المدافعون عنه والداعون إليه، وهناك انسجام واضح بين العروبة والإسلام للكثير من هذه الاعتبارات.

أما الدكتور محمود الزّهار، فيشير في مقدمته هو للكتاب إلى العديد من الحقائق الأولية التي يجب على كل مسلم أن يكون ملماً ومحيطاً بها، وعلى رأسها أن أصل المشكلات التي يعيش فيها المسلمون في الوقت الراهن إنما هي راجعة إلى ابتعاد المسلمين عن دينهم على مختلف المستويات، وخصوصاً الجوانب الأخلاقية والقيمية التي توجههم وتحكمهم في هذا العالم الدنيوي ونحو السعادة في العالم الآخروي.

ومن بين ما ركز عليه الدكتور الزّهار في مقدمته لكتابه، محاولة إظهار طبيعة المشكلات الأخلاقية والانهيار القيمي القائم على مستوى

الارتباط والتداخل مع مصطلح الحضارة ذاته وأحد أهم مكوناته؛ حيث إنها طبقاً لهذا الكلام فعل تراكمي يرتبط بالتاريخ وله جانبٌ معرفي، وإن كانت قضية المعرفة هنا أكثر التصاقاً بالثقافة عن قضية الحضارة.. كلاهما - أي الثقافة والمعرفة - مكونان أصيلان من مكونات الحضارة الإنسانية أياً كان مصدرها.

الفصل الثاني

المقومات الحضارية الرئيسة

وتناول فيه الدكتور الزّهار العوامل الأساسية التي يمكن إذا توافرت أن يتم إطلاق مصطلح "حضارة" على مجموعة من البشر، أو بمعنى آخر مقومات الحضارة الإنسانية، وهي: الدين والثقافة واللغة المشتركة، وكذلك التواصل الجغرافي والتاريخ الذي صنّعه هذه الحضارة الواحدة، بالإضافة إلى النظام السياسي السائد والأصول العرقية المشتركة.

وفي هذا الإطار، يتناول المؤلف بشكل خاص في جزئية الدين مجموعة من المعالم التاريخية الخاصة بالصورورات التي مرت بها الديانة المسيحية كأحد المقومات الحضارية بالنسبة للغرب، مركزاً على الانقسامات التي عرفتها الكنيسة طيلة تاريخها، والتحويلات البنيوية والمفاهيمية التي طرأت عليها بفعل هذه الانقسامات التي كانت ذات طابع عقيدي ومظاهر سياسية أدت إلى تغير كبير في بنية الحياة السياسية والاجتماعية في بلدان أوروبا والغرب عموماً.

وكانت بداية هذه الانقسامات عندما انفصلت الكنيسة الغربية الكاثوليكية عن الكنيسة الشرقية

الاستكبار والاستعمار العالمي، وعلى رأسها الولايات المتحدة والكيان الصهيوني، والتي ما فتئت تستولي على ثروات الشعوب ومقدراتها.

الفصل الأول

الحضارة والثقافة والمدنية

وهو فصل مفاهيمي بالأساس؛ حيث تناول بالعرض والتحليل مجموعة من المصطلحات النظرية ذات الارتباط بالموضوع الأساسي للكتاب، وهي تحديداً الواردة في عنوان الفصل "الحضارة والثقافة والمدنية".

ولعل الفكرة الأهم التي حاول الدكتور الزّهار التأكيد عليها هي ارتباط هذه المصطلحات بعضها ببعض، وخصوصاً مصطلحي الحضارة والمدنية؛ حيث إن كلا المصطلحين له جذر واحد في اللغة اللاتينية، فالحضارة تعني - Civiliza- tion، بينما المدنية تعني Civil أي لو نظرنا إلى طبيعة قواعد الاشتقاق في اللغة اللاتينية؛ فإننا سوف نجد أن الحضارة هي الجانب الحركي أو التفاعلي لمفهوم المدنية.

كما أن هناك الكثير من الروابط التي تجمع بين هذين المفهومين ومفهوم الثقافة Culture؛ حيث هناك الكثير من التشابك ما بين هذه المصطلحات فيما يخص طبيعة العمران البشري والطابع التراكمي لمصطلحي الحضارة والثقافة. حيث إن الحضارة هي ثمرة ونتاج أكبر لجهود متعددة يتوصل عن طريقها الإنسان إلى عدد من المنجزات.

كذلك، فالثقافة هي الكل المركّب الذي يتضمن المعارف والعقائد والفنون والأخلاق والقوانين والعادات، وعلى ذلك فهي شديدة

تستمد الحضارة الإسلامية حياتها وحيويتها من داخلها ومن إيمان أصحابها بها، وتنطلق من رؤية استراتيجية للعالم كله



هذا الكون ومدبر أمره بلا شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد، وأنه خلقه بطريقة تثبت وحدانيته؛ حيث لكل شيء مثيل وشبيه إلا الله (سبحانه وتعالى).

وترتبط بهذه الحقيقة مجموعة أخرى من الحقائق، من بينها أن الخالق الأعظم هو الأدرى بخلقه وهو الأقدر على معالجة أوجه الخلل التي تعترى الكون الذي خلقه، وهو يرد بذلك على بعض النظريات التي تظهر من آن إلى آخر، والتي تحاول التشكيك في هذه الحقيقة الكونية التي لا شك فيها، مثل نظرية النشوء والارتقاء، والتي تحاول تفسير خلق الكون والإنسان بصورة لا تردّها إلى هذه الحقيقة.

وعندما يحاول الإنسان السير في الآفاق ومراقبة الكون من حوله يجد فيه الكثير من السمات، من بينها اختلاف التركيب العضوي بين مكوناته، ولكن بشكل يحقق التواصل والتوازن فيما بينها، وكذلك التكامل والتكافل فيما بين المكونات المختلفة لهذا الكون.

ويقول الزُّهّار: إن أصل المشكلات والأمراض المختلفة التي يُعانيها الإنسان هو تجاوزه لبعض هذه الحقائق، ومن بينها حقيقة التكامل والتكافل؛ حيث يبدو ذلك في مظاهر عدة مثل الفقر وسوء توزيع الثروة، حتى في البلدان التي تصنّف على أنها دول غنية، مثل الولايات المتحدة؛ حيث توجد ظواهر مثل عمالة الأطفال وأطفال

الأرثوذكسيّة بسبب الصراع على السلطة السياسيّة والروحيّة ما بين البابا والإمبراطور البيزنطي، مع خلافات أخرى حول السيطرة على مدينة القدس "أورشليم".

فانفصلت الكنيسة في عام ١٠٥٤م، وبعد ذلك بحوالي ٥٠٠ عام تقريباً، وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي، ظهرت دعوة القس الألماني "مارتن لوثر" الإصلاحية التي كان من نتائجها ظهور الكنيسة البروتستانتية، وهو ما أدى إلى حروب دينية طويلة المدى استمرت حتى منتصف القرن السابع عشر تقريباً.

أما الانقسام الثالث الذي عرفته الديانة المسيحية، فكان بظهور الكنيسة الأنجليكانية أو الإنجيلية في إنجلترا، وكان سبب ظهورها رغبة الملك هنري الثامن في تطليق زوجته والزواج من آن بولين، ولما رفضت الكنيسة في روما ذلك أسس هذه الكنيسة.

ثم تناول الزُّهّار عوامل انهيار الحضارات المختلفة، والتي من بينها سنة التغيير التي وضعها الله (سبحانه وتعالى) في خلقه في العمران البشري، وكذلك عدم إحداث التوازن بين ما هو مادي وما هو روحي ومعنوي؛ حيث إن طغيان جانب على جانب آخر منها يؤدي إلى انهيار الحضارات الإنسانية.

الفصل الثالث

الحقيقة الكونية للحضارات

وهو عنوان الكتاب، وتناول فيه المؤلف - من وجهة نظر إسلامية - الحقائق أو الثوابت الكونية التي تقوم على أساسها الحضارات الإنسانية، وعلى رأسها أن الله (سبحانه وتعالى) هو خالق

سمو أهداف الجماعة الإنسانية وسمو وسائلها وتفكيرها.

ويتتبع المؤلف في هذا السياق صيرورة التاريخ الإنساني منذ خَلَقَ اللهُ تعالى أبانا آدم (عليه السلام)، وحتى العصر الحديث؛ حيث يشير إلى أن التاريخ الإنساني قد مرَّ بالعديد من المراحل التي ارتبطت في الغالب بتطور قدرة الإنسان ومعارفه، وكذلك تطور نمط حياته ما بين الترحال والاستقرار، فتناول المرحلة البدائية لحياة الإنسان ثم العصر الحجري، والذي شهد استقرار الإنسان حول الماء واحترافه الزراعة واستخدام الحيوان وبناء المساكن، وغير ذلك من مظاهر الحضارة الأولية.

بعد ذلك استخدم الإنسان المعادن، ثم عرف الورق على أيدي الصينيين، وبذلك دخل عصر التدوين والتسجيل، وقبل الميلاد بقرون قليلة بدأت الحضارات الإنسانية المختلفة في الظهور والتمايز؛ حيث ظهرت أولاً في المشرق الحضارة الهندية والحضارة اليابانية بجانب الحضارة الصينية وحضارات بلاد الرافدين، ثم الحضارة الإسلامية التي ظهرت في القرن السابع الميلادي.

ولقد استفادت الحضارات الغربية من المنجزات الحضارية لهذه الحضارات جميعها، وهو ما يعرف بالتلاقح الحضاري؛ إلا أن هناك ملاحظة على هذا الفصل في هذه الجزئية؛ حيث لم يذكر الزَّهَار الحضارة المصرية القديمة ودورها في تطور الحضارات الإنسانية، على الرغم من أسبقية ظهورها على باقي هذه الحضارات، وكذلك أسبقية تطويرها للعلوم المختلفة، بما في ذلك الطب والفلك والرياضيات والكتابة بالأبجديات المختلفة.

الشوارع، كما أن هناك نسبة كبيرة من الفقر داخل الولايات المتحدة رغم كل مظاهر الترف القائمة فيها.

كذلك تخالف الأوضاع القائمة الآن في العالم الكثير من النواميس التي وضعها الله (سبحانه وتعالى) لخلق الكون، مثل الاستقلالية والتعاون، ولذلك ينتقد ظواهر مثل الاستعمار والحروب والقطبية والحزبية؛ حيث تخالف في ذاتيتها وفي مجملها العام هذه النواميس التي خلقها الله تعالى لتسيير الكون.

ولعل السمة الأهم التي يجب على جميع الأمم والحضارات الالتزام بها في هذا الإطار، هي سمة العدل أو صفة العدل؛ حيث إن غياب العدل عن التعامل فيما بين بني الإنسان يقود إلى الحروب والدمار وسعي الحضارات الأكبر والأقوى إلى غزو واستغلال الأمم الأخرى والحضارات الأضعف.

الفصل الرابع

مسيرة التاريخ

وفي بدايته، يؤكد الدكتور الزَّهَار عددًا من الحقائق الأولية حول التاريخ الإنساني، ومن بينها أن التاريخ بدأ مع خلق الأرض، وهو أحد مخلوقات الله (عزَّ وجل)، ولذلك فهو - أي التاريخ - له بداية وله نهاية، وهو عبارة عن مسار واحد مرتبط ومتطور.

والتقدم من وجهة نظر الكاتب يعني الارتقاء بالإنسان، حياته ومنجزاته على مختلف المستويات، المادية والمعنوية والثقافية، وغير ذلك من الأمور، ولا يعتبر في المقابل أن التقدم يعني فقط زيادة أعداد البشرية؛ حيث إن هذا المعيار لا يعني زيادة العدد فقط؛ بل أيضًا التقدم في

الحضارة هي الجانب الحركي أو التفاعلي لمفهوم المدنية، وكلا المصطلحين له جذر لغوي واحد في اللاتينية



إلى أفكار أصحاب المدارس الليبرالية والشيوعية في عصرنا الحديث، ويركز فيها على أمرين: الأول هو الطبيعة العنصرية الموجودة لدى بعض أصحاب هذه النظريات في نظرهم إلى الإنسان، باعتبار أن بعض البشر أفضل من بعضهم الآخر، والثاني هو طبيعة القصور القائم في فهم طبيعة الإنسان ورسالته في هذه الدنيا، وهو ما تلافاه الإسلام الحنيف؛ حيث كل البشر سواسية ومهمة الإنسان ورسالته معروفة على الوجه الأكمل.

الفصل السادس

هوية الحضارات

وفيه يناقش الدكتور الزّهار مجموعة من القضايا ذات الطبيعة الاجتماعية والفلسفية والسياسية المتعلقة بقضية الحضارات الإنسانية وهويتها، لكنه يركز بشكل خاص على مسألة أو إشكالية خروج فكرة تمايز كل حضارة عن حضارة أخرى إلى مجال العنصرية والتعالي من جانب بعض الحضارات على البعض الآخر.

ومن بين مظاهر ذلك تصنيف بعض الحضارات الإنسانية العالم من وجهة نظرها.. مثل القول بـ "الشرق والغرب"، و"دار السلام ودار الحرب" و"نحن المؤمنون وهم الكفار" أو القول "نحن الحضارة والتقدم، وهم التخلف".

وفي إطار تناوله للواقع الحضاري الذي يحياه الإنسان في وقتنا الراهن؛ تناول الزّهار بعضاً من معالم التردي الحضاري الراهن، ومن بينها الانحرافات السلوكية والفكرية، والتي أدت إلى الكثير من التبدلات في القيم، واندلاع الحروب والصراعات المختلفة، وهو ما يقود تدريجياً إلى تدمير الحضارات الإنسانية القائمة بسبب الظلم والعدوان وسعي بعض الحضارات إلى الهيمنة والسيطرة على الأمم والحضارات الأخرى.

الفصل الخامس

جوهر الحضارات

وهذا الفصل رغم صغرهِ يناقش قضية في غاية الأهمية، ألا وهي ضرورة فهم الإنسان للحقائق الكونية التي تحكم سيرورة الحضارات الإنسانية، وعلى رأسها أن الإنسان هو محور الكون، وأنه هو المخلوق المفضل على كثير من الخلق، وأنه مكرم، والأهم من ذلك أنه لا توجد أفضلية لبشر على بشر آخر من جهة العرق أو الدين أو غيره.

والمسلمون هم أكثر الناس التزاماً بالفهم الشامل للإنسان، جنس الإنسان، كل القوميات وكل الأعراف، كل ما هو إنسان، والإسلام يؤكد أن الإنسان مخلوق له عقل يجب أن يستخدمه في الحكم على الأمور المخول له الحكم فيها، وعليه أن يحافظ على هذا العقل.

وهنا يناقش المؤلف في إطار مقارن النظريات الفلسفية الأخرى التي ظهرت عبر مراحل مختلفة من التاريخ الإنساني، وكيف نظرت إلى الإنسان، وأوجه القصور الموجودة في هذه النظرة.

فيبدأ مع أفكار أفلاطون وماكيافيلي، وصولاً

٤- مرحلة الانحراف، وهي التي تشهد انحراف الحضارات الإنسانية عن الأسس الحضارية المتينة، وخصوصاً المقومات المشار إليها سلفاً، مثل العدل والتكامل والتكافل وغير ذلك.

٥- مرحلة الضعف، وهي المرحلة التي تبدأ فيها الحضارة الإنسانية في مرحلة الأفول، بعد استفادها لوقود تطورها ونموها بسبب عوامل خارجية وأخرى داخلية، كما هو واضح في حالة دولة الخلافة الإسلامية بمختلف أسماؤها، مركزاً على حالة الخلافة العثمانية.

ويركز المؤلف هنا على حالة الشتات الفكري وتششت الهوية التي طرأت على المجتمعات العربية والإسلامية التي كانت منضوية تحت راية الخلافة، مع ركون بعضها إلى نظريات مختلفة لا علاقة لها بالإسلام، مثل العلمانية والليبرالية، مع وضع حدود ما بين مكونات الأمة السابقة.

٦- مرحلة المصير التاريخي، وفيها تحدد الجماعة البشرية ما إذا كانت سوف تستمر، كما في حالة الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، أو تنتهي إلى الأبد، كما في حالة الحضارات الفرعونية وبلاد الرافدين والإغريقية، أو تفضل أن تكون جزءاً من حضارة أكبر، كما في حالة اليابان بعد الحرب العالمية الثانية.

ثم يتناول المؤلف قضية التحديث والتغريب في إطار الحديث عن النظرة القائمة للغرب باعتباره هو الإمبراطورية العالمية أو الحضارة العالمية، ويشير إلى أن هذا المفهوم، إنما هو مفهوم خاطئ؛ حيث إن العقود الأخيرة شهدت الكثير من التراجع في هيمنة الغرب وانتشاره في العالم؛ حيث تراجع بحيث صار متمركزاً فقط حول أوروبا والولايات المتحدة.

وهذه النظرة الاستعلائية غير السوية هي واحدة من أهم العوامل والأسباب التي تؤدي إلى نشوء الحروب والصراعات في عالمنا المعاصر.

وهناك مجموعة من الحقائق التي يجب وضعها في الإدراك عند الحديث عن قضية هوية الحضارات الإنسانية، ومن بينها:

- اختلاف المجتمع المتحضر عن المجتمع البدائي، وأن الانتقال من حالة إلى حالة؛ يجب أن يتضمن تطوراً على مستوى البنية الفكرية والثقافية.

- الحضارات الإنسانية هي صورة أخلاقية متعددة الأوجه، وهي ترتبط أيضاً بطبيعة إدراك الإنسان لذاته وفهمه لثقافته.

- الحضارة مفهوم شامل، يحتوي على مجموعة من المفاهيم التي تتصل بفهم الإنسان لنفسه ولرسالته في الحياة ودوره فيها، وكذلك تصور الإنسان عن الحياة وعن الغايات والبداية والنهاية على الأرض وما بعد النهاية على الأرض. وفي هذا الإطار؛ فإن الحضارات الإنسانية تمر بعدة المراحل، وهي:

١- مرحلة الميلاد؛ حيث تولد إما كرسالة ربانية أو كفكرة فلسفية بشرية أو كحركة إصلاحية.

٢- مرحلة الاستجلاب، وهي فترة قراءة ودراسة ما أنتجته البشرية من معالم تقدم وثقافة، مع الحفاظ على الخصوصية الفكرية والثقافية للمجتمعات.

٣- مرحلة المزج بين المكون الخارجي والداخلي للحضارة الإنسانية، وهي مرحلة الانطلاق والنمو.

الفصل السابع

البناء السياسي للحضارات

وفي البداية يخلط الزّهار بين مفهوم الحضارة ومفهوم الدولة، أو ربما كانت هي محاولة للمزج ما بين المفهومين، أو للقول بأن الدولة هي أحد مظاهر الحضارة الإنسانية، ويشير في البداية إلى أن للدول عدداً من المقومات، من بينها الإقليم الجغرافي، والشعب، والسلطة الحاكمة التي فوضها الشعب لإدارة شؤونه ورعاية مصالحه.

والدولة هي المقوم الأساسي للبناء السياسي للشعوب، وهناك أكثر من تصنيف للدولة، من بينها الدولة القطرية، التي يعيش فيها شعب لا يوجد له امتدادات خارجية، ولا تعبر عن هوية سياسية أو دينية معينة لهذا الشعب، وهناك الدولة القومية التي تضم بين حدودها مجموعة متميزة من البشر لها سمات واحدة يتفق فيها شعبها، مثل الدين والقومية واللغة والعادات والتقاليد وغير ذلك.

وفيما يخص توزيع القوة على دول العالم؛ فإن هناك دولاً محورية، تمثل مركز ثقل إقليم بعينه، مثل الصين بالنسبة لإقليمها، وهناك الدولة العضو، وهي التي تكون جزءاً من تحالف حضاري أكبر، مثل الدول العربية في إطار منظومة جامعة الدول العربية، وهناك الدولة القومية المتفردة، التي تكون كلاً متكاملأً بذاته، مثل اليابان، وغير متفاعل مع الآخر من حوله في الغالب، مثل إثيوبيا وهابيتي، وأخيراً هناك دول التفسخ، ويعني بها الكاتب تلك الدول التي تكون الفوارق العرقية فيها عميقة، وتضم تجمعات بشرية عدة

الدين والثقافة واللغة المشتركة،

وكذلك التواصل الجغرافي والتاريخ

المشترك، والنظام السياسي السائد،

والأصول العرقية.. أهم مقومات الحضارة

الإنسانية، بينما غياب التوازن بين المادي

والروحي أهم أسباب انهيارها وشيوع

النظرة الاستعلائية



لا تقدم الإطار اللازم لجمعها مع بعضها البعض كأغلب بلدان العالم الثالث.

ويشير الزّهار إلى أهمية وجود دولة مركزية إسلامية تضم المسلمين فيما بين أرجائها وحدودها، مع وجود دول مركزية لكل القوى الناهضة في العالم المعاصر، ولذلك فإن الأمة الإسلامية هي في حاجة إلى الإطار المركزي الجامع الذي يعبر عن دين الأمة، وعن طموحاتها، ويوفر المنفعة الاقتصادية والعسكرية، ويحسن كذلك من إمكانيات استغلال ثروات الأمة الطبيعية، وخصوصاً الموارد الاستراتيجية مثل النفط.

ويرصد المؤلف في هذا الإطار سبع دول مركزية في العالم العربي والإسلامي يمكنها من قيادة حلم استعادة دولة الخلافة الإسلامية، وهي مصر وتركيا والسعودية وإيران وباكستان واندونيسيا والمغرب، باعتبار أن كلاً منها يمتلك المقومات البشرية والطبيعية والموقع الجغرافي، والثقل التاريخي الذي يؤهله لأداء هذه المهمة.

الفصل الثامن

جذور الصراع الكوني المعاصر وأسبابه

وفيه يحاول الزُّهَّار، وربما من خلال تجربته العملية في الحركة الإسلامية، أن يقدم رؤية سياسية وفكرية حول جذور الصراع بين المسلمين والغرب في عصرنا الراهن، والملابسات التي تقف خلف احتساب الغرب للإسلام والمسلمين كعدو استراتيجي له.

ويقول: إن الغرب لا ينكر العلاقة المتوترة التي نشأت تاريخياً بين الإسلام والمسيحية، والتي نشأت منذ القرن السابع الميلادي بالمواجهة العسكرية والحضارية التي وقعت بين دولة المسلمين الوليدة والإمبراطورية الرومانية، مروراً بالمواجهات التي خاضتها الخلافة العثمانية التي هزمت أوروبا كلها تقريباً، وعندما ضعفت وهرمت احتل الغرب المسيحي مساحات واسعة من العالم الإسلامي.

وفي أواخر القرن العشرين، ومن بين ٢٨ مواجهة عسكرية وقعت، كان نصيب الصراع بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي ١٩ نزاعاً منها، أي أن المؤلف يربط في هذا السياق ما بين هذا الإطار التاريخي وما يجري في الوقت الراهن في عدد من بلدان العالم العربي والإسلامي من احتلال غربي مسيحي، كما في العراق وأفغانستان وفلسطين، ويقول: إن نموذج المحافظين الجدد في الولايات المتحدة ليس وليد اللحظة التاريخية؛ وإنما هو تعبير عن هذا الامتداد أو السياق التاريخي.

ويرد الزُّهَّار هذا الصراع إلى عدد من العوامل من بينها الشعور بالعداء والتنافس الحضاري وعلاقة الشك المتبادل ما بين

الجانبين؛ نتيجة للصورة الذهنية السلبية الخاطئة الموجودة لدى الجانبين عن الآخر تاريخياً.

وعلى الرغم من أن المؤلف يحمل الغرب مسؤولية هذه الحالة بسبب سياساته العدائية تجاه الإسلام والمسلمين؛ فإنه لا يُبرئ ذمة المسلمين تماماً من هذه الحالة، بسبب حالة الشك والخوف القائمة من الغرب، والتي دعمتها ممارسات الغرب ذاته من شن حروب عسكرية وحملات تنصيرية ضد المجتمعات الإسلامية وفي الفضاءات المحيطة بالعالم الإسلامي، ويخلص إلى أنه من خلال رصد هذه الحالة القائمة يصعب القول بحدوث وفاق بين الجانبين في الوقت الراهن.

كما تلعب عوامل مثل تصادم المصالح الاقتصادية والنظرة العنصرية لدى الغرب تجاه الآخر دورها في هذا، ولقد كانت مثل هذه العوامل محفزة على خروج موجات الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي منذ الحروب الصليبية وحتى الآن.

الفصل التاسع

الكتل الحضارية المعاصرة

وفيه تناول الكاتب خريطة توزيع القوى الحضارية المؤثرة على مستوى العالم، بناءً على معايير مدى امتلاك هذه القوى لعناصر القوة الشاملة على مختلف المستويات السياسية والعسكرية والاقتصادية، كما يناقش مقولات البعض في الغرب من أن الغرب قد صار هو القوة الأكبر بعد انتصاره في الحرب الباردة ضد الكتلة الشيوعية السابقة.

ويضع الزُّهَّار الإنسان المؤهل على رأس هذه

الأمّة الإسلامية بحاجة إلى إطار مركزي جامع يعبر عن دين الأمّة وطموحاتها ويوفر لها المنفعة الاقتصادية والعسكرية ويحسن إمكانيات استغلال ثرواتها



إسرائيل والغرب الكاثوليكي البروتستانتي.

كما أن سياسات الولايات المتحدة فيما يخص قضايا العالم الإسلامي بها الكثير من النزعة الهجومية والعدائية إلى حد الحرب الصريحة، كما في حالة العراق وأفغانستان، والحصار، كما في حالة إيران وغزة وسوريا.

ويقول الزّهار: إن الحالة الوحيدة التي يمكن معها مواجهة هذه الوضعيّة، هي تحقق وحدة المسلمين، والثورة على واقع الطغيان والظلم العالمي للغرب، ويطرح المؤلّف في السياق مجموعة من الاحتمالات التي يمكن أن تحدث للأمّة للخروج من هذه الحالة:

الاحتمال الأول والثاني يحسبان بالفعل للدكتور محمود الزّهار؛ حيث تتبأ فيهما بما يجري حالياً في مصر وفلسطين وتونس وسوريا وعدد آخر من دول عالمنا العربي والإسلامي؛ حيث ثارت الشعوب على أوضاعها، سواءً ضد الحكومات الظالمة والأنظمة الاستبدادية الموجودة، أو ضد قوى الاستكبار والاستعمار العالمي.

الاحتمال الثالث أو الخيار الثالث المطروح في

المعايير أو عناصر القوة الشاملة، يلي ذلك عدد السكان ثم الموقع الجغرافي والمقدّرات الطبيعيّة، مثل الثروات والموقع الجغرافي، ثم القوة العسكريّة، ووفق هذه المعايير تأتي الولايات المتحدة وأوروبا والصين وروسيا والهند على رأس هذه القوى.

وفي محاولة تصنيفه لوضع العالم الإسلامي في هذه التراتبيّة، يقدم الكاتب مجموعة من الحقائق الإحصائيّة حول واقع الأمّة الاقتصادي والسياسي والعسكري، ويرى من خلال هذه الحقائق حجم الفجوة الموجودة بين العالم الإسلامي والكتل الحضاريّة الكبرى، والتي صنفها إلى أربع مجموعات رئيسيّة هي الغرب البروتستانتي/ الكاثوليكي وتقوده الولايات المتحدة، وتضم معها أوروبا وكندا، والكتلة البوذية التي تقودها الصين، والكتلة الهنديّة التي تقودها الهند، والكتلة الأرثوذكسيّة التي تقودها روسيا، ويتركز نفوذها في دول أوروبا الشرقية.

الفصل العاشر

العلاقات الحضاريّة المستقبلية

وفيه يؤكّد الكاتب على عدد من الحقائق التي تناولها في الفصول السابقة، وهي استمرار حالة الصدام الحضاري القائمة حالياً بين الغرب والعالم الإسلامي.

ويعضد هذا التوقع استمرار الغرب في السياسات الحالية ضد العالم الإسلامي وضد الإسلام نفسه، فهناك تغليب لمصالح الغرب على العالم كله، وهناك سياسات مزدوجة المعايير فيما يتعلق بإدارة الأزمات الدوليّة؛ حيث مصالح الكيان الصهيوني الأمنيّة والسياسيّة مقدّمة على كل شيء، في إطار التحالف الحالي القائم ما بين

سيحكمه الاقتصاد وليس السياسة، ويشير إلى أنه على الرغم من تراجع مستوى احتمالات اندلاع حرب بين الصين والولايات المتحدة بسبب خروج الجمهوريين الجدد من البيت الأبيض؛ فإنه يبقى احتمالاً قائماً حال تهديد الصين لقواعد الهيمنة الأمريكية والغربية في العالم بشكل عميق.

الفصل الثالث عشر

الهند والعالم

وفيه يعيب الكاتب على الهند حالة التباعد التي نشأت بينها وبين العالم الإسلامي والعالم الثالث في مقابل توافقه الاستراتيجية الحالي مع الغرب والكيان الصهيوني، ويشير إلى أن الصراع التقليدي بين الصين والهند، ومع التقارب بين الصين والعالم الإسلامي؛ فإن الهند مرشحة إلى أن تزيد من مستوى تسيقها مع الولايات المتحدة وإسرائيل.

الفصل الرابع عشر

علاقة الشرق الأرثوذكسي والعالم

وفيه يركز على مظاهر التقارب والتباعد بين روسيا وقوى آسيا التقليدية، فيشير إلى أنه رغم التقارب الهندي مع الغرب؛ تظل الهند أقرب إلى روسيا من الصين، بينما باقي قوى آسيا الكبرى التقليدية في المعسكر البودي، مثل اليابان أقرب للغرب.

وأخيراً؛ فإن الكتاب كان عبارة عن مجموعة من البحوث السياسية والاجتماعية التي درست الظاهرة الحضارية سياسياً وتاريخياً، في محاولة لمخاطبة العقل الجمعي للعرب والمسلمين، بأن للحضارة أسباباً يجب الأخذ بها، وكذلك هناك ضرورة أكبر لفهم التاريخ من أجل فهم طبيعة الصورة القائمة في الوقت الراهن. ■

هذا المقام، هو ظهور شخصية يتوافق عليها العرب والمسلمون، تقود الأمة إلى الوحدة الشاملة، وتستعيد بها الأمة خيريتها ومكانتها الحضارية.

أما فصول الكتاب من الحادي عشر وحتى الرابع عشر، فكانت موجزة؛ حيث ناقش فيها الزّهار من وجهة نظر علم المستقبلات الآفاق التي تنتظر كل كتلة من هذه الكتل الحضارية التي تناولها في الفصول السابقة.

الفصل الحادي عشر

مستقبل الغرب

وفيه يناقش المؤلف مجموعة من القضايا المرتبطة بالواقع الحالي للغرب، ومظاهر الانهيار الأخلاقي والقيمي الموجودة فيه، والذي سيقود، بموجب قوانين العمران البشري المتعارف عليها، إلى الزوال والانهيار، أو على الأقل التراجع في مستوى السلم الحضاري، والتخلي عن قيادة العالم والهيمنة عليه.

ويدلل المؤلف بمجموعة من المؤشرات التي تؤكد وجهة نظره، مثل تراجع نسبة تمثيل الولايات المتحدة وأوروبا الغربية في الاقتصاد العالمي لصالح قوى أخرى ناهضة، مثل الصين والهند والبرازيل وإندونيسيا.

الفصل الثاني عشر

آسيا والصين والعالم

وفيه ناقش الدكتور الزّهار مستقبل الكتلة الحضارية الآسيوية، وعلى رأسها الصين، وركز فيه على القوة الاقتصادية المتنامية لهذه الكتلة، واحتمال انضمام دول أخرى إلى الصين في قيادتها مثل إندونيسيا وسنغافورة، ويقول: إن مستقبل العلاقات بين هذه الكتلة والغرب